أغراض الشعر
في
العصر الجاهلي

obeikandl.com

obeikandl.com

تعددت أغراض الشعر في العصر الجاهلي ، فظهرت إلى جانب الوصف أغراض كثيرة كان منها :

• المدح :

مدح الشاعر الجاهلي بفضائل ثابتة كالشجاعة والكرم والحلم ورجاحة العقل ورفعة النسب، وغيرها من الصفات الخلقية المثلى التي كان يطيب للعربي ان يتحلى ويتصف بها ، كما كان يتخذ من المدح المبالغ فيه- باستثناء زهير بن أبي سُلمى مثلاً- حافزًا للممدوح على المزيد من العطاء وكان يقدّم لقصائده في المديح بوصف الرحلة ومشاق الطريق وما أصاب ناقته من الجهد ليضمن مزيدًا من بذل ممدوحه ، فهذا زهير بن أبي سلمى يمدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان لسعيهما في الصلح بين قبيلتي عبس وذبيان ، يقول:

يمينا لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا
بمال ومعروف من الامر نسلم

ولم يكن في المدح في الشعر العربي شيء من التملق والبحث عن النفع بل كان في كثير من الأحيان يصب في تجسيد الود الخالص والإعجاب العميق بين الشاعر والممدوح ، فامتدح الشعراء في العربي روح الكرم والشجاعة ونجدة الملهوف ورعاية الجار.

• الهجاء:

كان الشاعر الجاهلي في هجائه يندد بالرذائل وسمات الجبن والبخل والسّفه الذي هو ضدّ الحلم، فضلاً عن وضاعة النسب وما عرفت به قبيلة المهجو من مثالب وعيوب اشتهرت بها بين سائر القبائل، وهي – عادة – لا تخرج عن الرذائل التي تنفر منها النفس العربية عادة، ولعل من أشهر الهجَّائين في الجاهلية الشاعر الحطيئة، وكان شاعرا مخضرما ، غير مأمون العاقبة، يهجو الناس فيعطونه الأموال ليكف عنهم هجائهم ومع ذلك كان يأخذ أموالهم ولا يكف عن الهجاء والتعرض لهم بسيء القول .

• الرثاء:

تميز الرثاء في العصر الجاهلي بالصدق وعفوية الأداء، وقد رثى شعراء الجاهلية قتلاهم في الحروب بذكر مناقبهم وبالبكاء الحار عليهم حثًا للقبيلة على الثأر ، كما رثوا موتاهم في غير الحروب، فهذه الخنساء تخرج إلى سوق عُكاظ فتندب أخويها صخرًا ومعاوية وكانت تحاكيها هند بنت عتبة راثية أباها، ولم تكن الخنساء ولا مثيلاتها من البواكي يقنعن بيوم أو أيام في رثاء

موتاهنَّ، بل كنّ يمكثن الأعوام باكيات راثيات، ولا شك أن النساء كنَّ يدعون بدعوى الجاهلية سواء في أشعارهن أم في بكائهن وعويلهن. **ومن روائع مراثي الخنساء ما قالته في أخيها صخر:**

قذىً بعينك أم بالعين عُوَّار

أم ذرَّفت مُذْ خلت من أهلها الدارُ

كأن عيني لذكراه إذا خطرت فيضٌ

يسيل على الخدَّين مدرار

• الفخر:

من الأغراض التي شاعت على ألسنة الشعراء الجاهليين ، **وكان للفخر نوعان:**

- ✓ أحدهما فردي، يشيد فيه الشاعر بنفسه وما لديه من مفاخر الكرم والشجاعة والبأس
- ✓ والآخر جماعي يشيد الشاعر فيه بعشيرته وقبيلته وما تتحلى به من سؤدد وعراقة أصل . وهي فضائل وصفات تقوم على العصبية القبلية والمفاخرة بالأحساب والأنساب .

يقول عمرو بن كلثوم مفتخرا بنفسه وقومه:

أباهند فلا تعجل علينا

وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنـــا نـــورد الرايـــات بيضـــا

ونصـــدرهن حمـــرا قـــد روينـــا

ونشرب إن وردنـــا المـــاء صـــفوا

ويشـــرب غيرنـــا كـــدرا وطينـــا

وأيـــام لنـــا غـــر طـــوال

عصـــينا الملـــك فيهـــا أن نـــدينا

إذا بلـــغ الفطـــام لنـــا صـــبي

تخـــر لـــه الجبـــابر ســـاجدينا

• شعر الحماسة:

وهو شعر الحرب الذي يصور المعارك ويشيد بالأبطال ويفاخر بهم ويتوعد الأعداء، ويثني على بطولات الأبطال في الحرب، وتعد معلقة عمرو بن كلثوم واحدة من عيون الحماسيات في أشعار الجاهليين، ومثلها معلقة عنترة التي امتزج فيها الفخر بالحماسة، وقصائد أخرى له.

وكانت قصائد الحماسة مادة لإلهاب مشاعر المحاربين، كما عدّها مؤرخو الأدب مصدرًا مهمًا لتاريخ العرب في حروبهم وأسلحتهم وأنسابهم وفضائلهم، يقول عنترة :

أثني علـــي بمـــا علمـــت فـــإنني

ســـمح مخـــالقتي إذا لـــم أظلـــم

obeikandl.com

فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل

مر مذاقته كطعم العلقم

• الغزل:

يدلنا تراث هذا العصر على وجود شعر الغزل وما يحمل من رقة مشاعر، كما يسجل لنا معايير الجاهليين في جمال المرأة، ومن أشهر المتغزّلين **في هذا العصر:**

عُروة بن حزام العُذريّ الذي أحبَّ عَفْراء ابنة عمه، ومالك بن الصمصامة الذي أحبَّ جنوب بنت محصن الجعديّ، ومسافر بن أبي عمرو الذي أحب هندًا بنت عُتبة ، وأشهر هذه القصص (عنترة وابنة عمه عبلة) .

وقد درج الشعراء في مقدمات قصائدهم على بكاء ديار أحبتهم في حنين جارف، كما كانوا مشغوفين بذكر رواحل محبوباتهم حين يرحلن من مكان مجدب إلى آخر خصيب، وفي معلقة امرئ القيس مقدمة غزلية باكية فيها ذكر الحبيب ومنزله، **ويقال**:(إنه كان أول من بكى واستبكى) ، يقول :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لمَ يعـف رسـمها

لما نسجته الريح من جنوب وشمال

شكل القصيدة الجاهلية:

تبدأ القصيدة الجاهليّة بذكر الأطلال ثمّ والديار القديمة وبعدها ذكـر الحبيبـة، ثـم يصـف الشـاعر ناقتـه ودابتـه ثـمّ ينتقـل إلى الحماسة والفخر ويختمها بالحكمة ....إلخ.

والقصيدة الجاهلية :

- تميل إلى الخشونة والفخامة.
- خالية من الأخطاء ، والألفاظ الأعجميّة لأنـهم لم يختلطوا بغيرهم .
- تخلو من الزخارف والتكلّف والمحسّنات المصنوعة .
- تميل إلى الإيجاز .

* ومن حيث المعاني :

- تخلو من المبالغة المقوتة.
- بعيدة عن التعقيد.
- غالباً تقوم على وحدة البيت لا وحدة القصيدة، منتزعة من البيئة البدوية .

obeikandl.com

- الاستطراد.

* **ومن حيث الخيال:**

- اسع يدلّ على دقّة الملاحظة.
- صور الشعر الجاهلي تمثّل البيئة البدوية.
- صور الشعر الجاهلي ليست متكلّفة.
- الصّور الجاهلية تعتمد على الطابع الحسّي .

أولية الشعر الجاهلي :-

ليس من شك في أن الشعر الجاهلي صنو الغناء ، فتُربتهما واحدة وهدفهما واحد فمن قال الشعر ، قاله ليتغنى به .

وقد قضى اليونان أجيالاً طويلة لا يقولون الشعر إلاّ إنشادًا (١) .

ولعل العرب كانوا كذلك في أقدم أحوالهم ، فنبغ منهم جماعة يغنون بشعرهم كما فعل الأعشى قبل الإسلام ، فقد كان ينظم الشعر ويغنيه ، ولذلك سَمَّوه صنّاجة العرب .

وقال حسان بن ثابت :-

تغن بالشعر إما كنت قائلـــه إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وهكذا مشى الشعر يتسرب في أعقاب العصور حيث ظهر على غفلة من التاريخ في هذه البادية العربية فرتع ما شاء الله بين آفاقها المجلوَّة ، وسمائها الصافية ، ورسم لهذه الأمة الخالدة صفحة ناصعة .

ومنذ ظهر العرب على صفحة التاريخ ، ولا تستطيع رواية مأثورة أن تقدم لنا خبرًا صحيحًا عن أولية الشعر[٢] .

ومن يتأمل الشعر الجاهلي ، يجد أن بدايته معدومة ، فلا يعرف أول من لهج بالشعر ، وأطال القصيد .

- ويذكر صاحب العمدة : أن أول من قصّد القصائد هو المهلهل ابن ربيعة ، قال الفرزدق بن غالب :

ومهلهل الشعراء ذاك الأول :

- وهناك من يرى أن امرأ القيس هو أول من أطال القصائد ، وقال الشعر وتبعه طرفة ، وعبيد بن الأبرص .

وهكذا انطلقت شاعرية العرب ، تشدو بهذا الفن الجميل لا فرق في هذا بين رجل وامرأة ، أو أمير وصعلوك .

- وعلى هذا فبداية الشعر الجاهلي غير معروفة ، أو لا يوجد دليل قاطع يحددها فتاريخ هذا الفن بدأ متأخرًا .

وبالرغم من هذا لابد أن نقر بأن الشعر الجاهلي مر بعدة مراحل قبل هذه المرحلة التى وصل بها إلينا ، وهى مرحلة النضج والاكتمال الفني .

وعلى أية حال ، فإن نقادنا العرب يُرهصون - مجرد تخمَين لا يستند إلى توثيق - أن الشعر الجاهلي بدأ بمناجاة الآلهة فيما يعرف بسجع الكهان وتطور من السجع إلى الرجز، بعدها تحول الرجز إلى حُداء وترنّم ، ثم أُنشدت - مع السنين- الأبيات المفردة ، فالمقطّعات القصيرة ، فالقصائد الطوال [٣].

obeikandl.com

الهوامش :

١- تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان ، جـ١ / ٥٤ .

٢- الأدب فى العصر الجاهلي ، د/عبد الرحمن عبد الحميد / ٥٨.

٣- امرؤ القيس ، د- طاهر مكى / الأولى ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٨م ١٨٢ وما بعدها ، الطبعة

obeikandl.com